Gérard Chaliand

Rapport sur la résistance afghane.

تقرير عن المقاومة الافغانية

(Paris: Berger - Levrault, 1981), 163 p.

د. غسان سلامة

الكتابة العربية عن افغانستان صعبة ونادرة ، او بالأحرى نادرة لأنها صعبة . ذلك أن الإشكالية التي يطرحها التدخل العسكري السوفياتي الكثيف في افغانستان ، تثير الاحراج لأي عربي . فهذا التدخل ، من قِبل قوة عظمى قادرة ونشطة ، في بلد يتبع رسمياً سياسة عدم الانحياز ، يقطنه حوالى ١٥ مليون مسلم ، يقع في جوار المنطقة العربية (ولو أنه جوار غير مباشر) ، امر يصعب التسليم به . هذا ، على الأقل ، ما بدر عن غالبية الحكومات العربية ، إن في رد فعلها الذاتي ، أو في مواقفها المعلنة في اللقاءات الدولية (خصوصاً داخل المؤتمرات الاسلامية) . بل يبدو أن المجموعات السياسية العربية ، الأكثر قرباً من موسكو ، كانت محرجة في التعبير عن تأييدها لهذا التدخل . من ناحية أخرى ، لا يمكن نفي أن الاتحاد السوفياتي حليف العرب وسندهم الطبيعي في صراعهم مع اسرائيل ، على الأقل في اللحظات التي يكون فيها هذا الصراع ، مرآة اقليمية مصغّرة لصراع الجبّارين . ليس من السهل اذن انتقاد سياسة موسكو في كابول ودعوتها ، في الوقت نفسه ، الى لعب دور اكثر نشاطاً في فلسطين . ليس ذلك سهلاً ولكنه ممكن . وهذا عملياً ما قام به معظم الحكومات العربية خلال السنتين الماضيتين ، ولو تفاوتت حدة النقد من بلد لآخر ، ولو اختلفت حرارة الالحاح من حكومة الى اخرى . لكن قضية افغانستان ، تطرح ايضاً مسألة أوسع ، اذ تكشف بوضوح عن هشاشة التضامن العربي ، في هذه المرحلة ، ازاء عدد من النزاعات المهمة التي تدور رحاها في محيط العرب المباشر : الاحتلال التركي لجزء من قبرص (١٩٧٤)، الثورة الاثيوبية ، والحرب في القرن الافريقي (١٩٧٧) ، الثورة الايرانية ، والحرب الايرانية ـ العراقية (١٩٧٩ فما بعد) ، التدخل السوفياتي في افغانستان (١٩٧٩ فما بعد) ، حرب التشاد (١٩٧٩) ... وما هذه ، الا امثلة بين أخرى . الا أنه في كلٍ من هذه المحطات ، توزع الدعم العربي ، السياسي والمالي ـ والعسكري احياناً ـ على طرفي الصراع ، كاشفاً للعالم الشقوق العميقة في نسيج السياسة العربية الراهنة .

لم يتميز هذا النسيج بقدر معقول من التماسك الا إزاء السياسة المصرية في مسارها

الراهن . وقد شكلت قمة بغداد في خريف ١٩٧٨ لحظة مهمة ولكن صعبة التكرار . ففيها اتفق العرب على رفض مبادرة الرئيس السادات في زيارته للقدس ، وفي توقيعه على اتفاقي كمب ديفيد ، ومن ثم في قبوله باتفاقية الصلح المصرية ـ الاسرائيلية وفي تطبيع علاقات البلدين . لقد خرج عدد من البلدان العربية لاحقاً ، وبدرجات متفاوتة ، عن هذا الاجماع ، الذي كان مسوماً في الاساس بنقص خطير ، هو طبعاً كون القاهرة خارجه . لكنه ، على الرغم من ذلك ، كان لحظة مهمة ، شهدت تقارباً عراقياً ـ سورياً لم تر البلدان العربية الأخرى مجالاً إلا في الالتحاق به ، عن حماسة او عن رضوخ . هذه اللحظة ، لم تتكرر ، بل أن السنوات القليلة التي تبعتها ، كانت عودة تدريجية الى التفرد والتفسخ ، ولو أن قمة تونس العربية ، في خريف ١٩٧٩ ، شهدت محاولة حثيثة لابقاء الحد الأدنى من لقاء بغداد حياً .

والموقف من قضية افغانستان ، مثال صارخ على هذا التدهور . لقد برز ذلك ، أسابيع قليلة بعد قمة تونس . ففي ٢٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٩ دخل حوالى ثمانين الف جندي سوفياتي الاراضي الافغانية وساهموا باستبدال قيادة حفيظ الله امين بأخرى يرئسها بابراك كرمل . بعد ذلك باسبوعين ، في الجمعية العامة للامم المتحدة ، ايدت اكثرية البلدان العربية قراراً يستنكر التدخل السوفياتي وعارضته جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، بينما امتنع عن التصويت كل من سورية والجزائر وليبيا والسودان والجمهورية العربية اليمنية . بعدها باسبوعين ، كان المؤتمر الاسلامي يدعو الى اجتماع استثنائي لوزراء الخارجية . وفي الاجتماع (٢٧ ـ ٢٩ كانون الثاني / يناير ١٩٨٠) تمايزت مواقف البلدان العربية مجدداً (مع العلم أن عضوية مصر مجمّدة منذ ايار / مايو ١٩٧٩) . فقد قررت كل من دمشق وعدن مقاطعة الاجتماع ، بينما رأت طرابلس والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية المشاركة فيه على مستوى السفراء . لكن قرارات لقاء اسلام اباد الاسلامي ، تم اتخاذها بالاجماع ، ولم يتحفظ اي مندوب (عربي ام لا) عليها . وبالنظر لكون افغانستان غير عربية ، فقد اضطرت البلدان العربية الأكثر حماسة في معارضتها للتدخل السوفياتي في افغانستان ، أن تقبل بعدم ادراج المسألة في مختلف اللقاءات العربية . لكن الخلافات بين البلدان العربية كانت قد استعرت خلال سنة ١٩٨٠ بافغانستان ودونها ، كما بدا واضحاً في المرحلة الاعدادية لقمة عمان العربية ، ثم في اثناء عقدها . اما في قمة الطائف الاسلامية (كانون الثاني / يناير ١٩٨١) ، فقد سهّل موقف باكستان المعتدل من المسألة الافغانية ، قيام نوع من التوافق العام عليها . ولكن بريق المسألة ككل كان ، في ذلك الحين ، قد فتر الى حد بعيد .

في هذا الوقت ، انتقل جل الاهتمام مما يجري في جوار افغانستان الى ما يحدث داخلها . وهنا ايضاً العرب مختلفون . فمن بلدانهم من يكتفي بمتابعة الشجب المبدئي ، ولكنه لا يشعر نفسه معنياً . ومنها من ينتقد التركيز على كابول بينما القدس تحت الاحتلال . ومنها من يقدّم للمقاومة الافغانية دعماً مالياً او بالاعتدة والسلاح . والمثير للانتباه فعلاً أن تضاؤل اهتمام العرب بالمسألة (وله اسباب عديدة منها طبعاً فقدان الأمل بانسحاب سوفياتي على المدى القريب ، وبروز قضايا اكثر مساساً بصلب الهموم العربية) يقابله تزايد واضح في اهتمام الغرب بالمسألة (واسبابه، هو الآخر عديدة ، من بينها نجاح رونالد ريغان في الولايات المتحدة ، وموقف ميتران المتشدد من التدخل ، وتخوف الدول الاوروبية إجمالاً من أن تكون عملية كابول

المحطة النهائية لقطار الانفراج الدولي) .

في هذا السياق ، صدر كتاب جيرار شاليان ، (وشهادات اخرى اصبح عددها لا يحصى لغربيين زاروا معاقل الثوار الأفغان) ليعطي للقارىء الغربي (بالانكليزية والفرنسية) صورة تريد أن تكون دقيقة عمّا يجري في هضاب هذا البلد المعدم ، وفي اوديته . ولا يخفي الكاتب ، الذي قام بجولتين في الأراضي التي توجد فيها المقاومة انطلاقاً من باكستان ، أن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن هو مموّل بحثه . كما أنه لا يخفي ايضاً معارضته **كغربي** للتدخل السوفياتي . من هنا ، لا بد للقارىء العربي ، الحريص على عدم زج نفسه عن عمى في صراع الشرق والغرب ، من أن يتناول الكتاب بحذر .

هذا الحذر ، يضاعفه شعور عام بالانزعاج يسببه كلام الكاتب عن نفسه . ففي كتاب من الحجم الصغير ، يصف نفسه مراراً « بالاختصاصي المجرّب في حروب العصابات » و « بالخبير في مجال الحروب الثورية » ، ناهيك عن السنوات التي يدّعي انه امضاها في الأدغال والهضاب التي لا يلجها الا الثوار . هذه الشهادة التي يعطيها عن نفسه تكراراً تسمح له بتقديم نظرية موجزة في علم الثورات المسلّحة ، تدهش في زواج السطحية بالادعاء .

لكن على القارىء أن يتعدّى ذلك ، الى فائدة الكتاب الأولى ، وهي المعلومات المعروضة عن البلد وعمّا يجري فيه ، ومن ثم الخلاصات التي يصل الكاتب اليها . يبدأ شاليان باعطاء صورة في الاجمال موضوعية (ص ٣٧ ـ ٥٥) عن الاحوال الافغانية ، قبل حدوث انقلاب نيسان / ابريل ١٩٧٨ الذي حمل الحزب الشيوعي الى السلطة : « بلد من ٦٥٠ الف كلم٢ ، لا يزرع منها الا ١٥ بالمائة ، يتميز بتنوع فئاته لغوياً وعنصرياً ، اما دينياً فالاغلبية فيه للمسلمين السنة (٨٠ بالمائة) . انه احد اكثر بلدان العالم فقراً ولكنه لم يشهد ثورات او انتفاضات ريفية فعلية ، فليس فيه عملياً مجموعة من كبار الملّاكين ، بقدر ما يبرز فيه وجهاء محلّيون لا يكاد المرء يميزهم عن العامة » . ويذكّر شاليان بأن العلاقات الافغانية ـ السوفياتية كانت متينة ، منذ قيام الدولة . اذ وقع بينهما اتفاق يحترم حياد كابول منذ ١٩٢٦ ، كما بدأ سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية المهمة منذ ١٩٥٠ . وقدمت موسكو لافغانستان مساعدة اقتصادية مهمة (١,٣ مليار دولار بين ١٩٥٥ و ١٩٧٧ ، مقابل ٥٠٠ مليون دولار للمرحلة نفسها من الولايات المتحدة) . وقد قام الاتحاد السوفياتي بتدريب العدد الاكبر من الضباط ، كما شيد عدداً كبيراً من المنشآت الافغانية .

لكن افغانستان تجد نفسها على مفترق طرق . وقد رسمت دول القرن الماضي الكبرى حدودها بشكل تكون فيه حداً لا منحازاً بين الامبراطوريتين الروسية والبريطانية (في الهند) . ومع اندحار الثانية، وصعود الأولى كان لا بد لهذا التوازن من أن يتعدّل ، وأن يزداد النفوذ السوفياتي تدريجاً في افغانستان . هذا النفوذ كان واضحاً أيام الملكية . كما ايام محاولة داود الفاشلة لاقامة جمهورية ليبرالية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٨) . ويبدو أن الافغانيين استقبلوا ، في اكثريتهم ، بايجابية، انقلاب ١٩٧٨ الماركسي . لكن اليسار الافغاني كان هشاً بشكل ، أن هيمنته على البلد ، لم تكن ممكنة دون اللجوء الى الوسائل البوليسية والقمع . ناهيك ان قيادة « خلق » ، الجناح الأكبر في الحزب، حاولت تطبيق الاصلاح الزراعي والتغيير الاجتماعي والثقافي بالقوة . من هنا يرى شاليان أن احد اهداف التدخل المهمة (والمغفلة إجمالاً) هو مساعدة الجناح الأصغر (بارشام) المبعد عن السلطة بالاستيلاء عليها لتطبيق سياسة تكون في الآن معاً أكثر التصاقاً بالوجهة السوفياتية في المجال

الخارجي ، وأقدر على تصور اصلاح تدريجي على المستوى الداخلي .

لكن أثار التدخل كانت عنيفة ، اذ قوي ساعد المقاومة في تعبئة الافغان ، كما تضخمت مخيمات اللاجئين في باكستان ، حيث يعيش حالياً بين ١٢ و ١٥ بالمائة من سكان افغانستان . ويصف شاليان المقاومة بكلمات قاسية ، فهي مشرذمة ومتخلفة ، وهي تفتقد الى خط سياسي واضح . لكن اهم ما في الأمر ، أنها تواجه دولة كبرى قادرة على البقاء طويلاً بالنظر لتماس البلدين ، وقادرة على ضبط الانعكاسات السلبية لتدخلها ، على الأقل في الاتحاد السوفياتي نفسه (بعكس تجربة الولايات المتحدة في فيتنام) . ويرى شاليان أن الأرقام التي تقدّمها حركات المقاومة عن ضحاياها ، من الجنود السوفيات مضخّمة للغاية . الا أنه يتجاوز هذه الاعتبارات لتقديم نظرية ، هي برأينا مثيرة للاهتمام.فهو يرى أن الطبيعة التقليدية المجزأة للمجتمع الافغاني ، تنعكس مباشرة على هيكلية حركة المقاومة . ويضيف ، أن الاسلام في افغانستان ، لم يشهد قبل انقلاب ١٩٧٨ او بعده حركات تجديدية مهمة ، تجعله اكثر ملاءمة للظروف الاستثنائية التي يمر بها البلد . هذان العنصران (اهمية الروح الاثنية القبلية في تحديد الولاء السياسي من جهة ، وسيطرة التيارات المحافظة على الحركات الاسلامية من جهة اخرى) ، هما برأيه وراء انعدام الروح الوطنية في صفوف المقاومين ، فهم إمّا قبليون يدافعون عن مناطق محددة ، وعن زعامات تقليدية مهددة ، واما مسلمون فئويون غير قادرين على مد اليد الى حركات المقاومة الأخرى (اما لأنها شيعية ، او لأنها ليبرالية ، أو لأنها تدعو لعصرنة المجتمع ... الخ) . وهو يرى في بعض الحركات ، بداية نشوء هذه « الوطنية الافغانية » التي هي ، برأيه ، شرط أساسي لنجاح المقاومة ، وبادىء ذي بدء لتوحيدها .

هل قلت « نجاح » ؟ الكلمة ليست في مكانها تماماً . فشاليان متشائم من وجهة نظره هو ، على الأقل . يحلّل الكاتب الاستراتيجية السوفياتية في افغانستان كالتالي :«ترى موسكو ، أن العملية طويلة للغاية ، وأن انسحاب قواتها في السنوات القليلة المقبلة سيؤدي لا محالة ، الى إنهيار النظام الافغاني الحالي ، الذي يفتقد الى قاعدة شعبية ، والى المقدرة على التنظيم ، وحتى الى قوات مسلحة ، بالنظر للعدد المتزايد من الجنود الذين يفرون من الخدمة . لذا فهم يسعون في المرحلة الحالية الى ابقاء سلطة كابرال في المدن الافغانية الرئيسية . والخطوة الثانية برأيه هي القيام بعملية اجلاء واسعة ، قسرية طبعاً ، للسكان في المناطق الحدودية بهدف منع التغلغل في باكستان وايران . وهذا يقتضي خطوة ثالثة : هي السيطرة على قمم الجبال والتلال من خلال عمليات هليكوبتر دائمة . اما الهدف البعيد المدى، فهو ادماج البلد نهائياً في مجموعة الدول الاشتراكية ، بحيث يصبح « منغوليا ثانية » . هذا يعني أساساً انشاء بنى اقتصادية واجتماعية مشابهة لتلك التي قامت في تلك الدول .

وبالنظر لأهمية افغانستان ، او على الأقل لأهمية محاذرة الفشل فيه فإن الكاتب ينتهي للقول « إن امكانات افغانستان للتخلص من الهيمنة السوفياتية قليلة للغاية، إن لم تكن معدومة » (ص ١١٠) . ويقارن بين دول مثل افغانستان واثيوبيا وانغولا ليخلص بالقول ، أن وضع موسكو في افغانستان ـ هو افضل من الدولتين الأخريين ـ خصوصاً بسبب الاستمرارية الجغرافية . بالمقابل يؤكد عن حق انه « في الولايات المتحدة لم تثر قضية افغانستان عشر الاهتمام الذي خص به الرأي العام الامريكي ، رهائن السفارة في

طهران » (ص ١١٤) . وان غيّر الرئيس ريغان هذا المنحى بتقديم اسلحة للثوار الافغان ، فلن يغيّر ذلك شيئاً في الاساس ، « ذلك ان اي عدد من الضحايا السوفيات لن يكون عالياً بشكل كاف لتغيير المعادلة الافغانية » (ص ١١٥) . لكنه يناقض نفسه لاحقاً بالتأكيد ، انه مع نمو المقاومة المسلحة فإن « مسألة افغانستان سوف تصبح لا ملفاً منسياً ، ولكن احدى نقاط التوتر الاساسية خلال السنوات المقبلة » (ص ١٢٧) .

إن قراءتنا لكتاب شاليان ، لا تهدف بالأساس الى مناقشته فيما ذهب اليه ، بقدر ما هي مناسبة لطرح المسألة الافغانية على الضمير العربي . فمنطلقه والمصالح التي يدافع عنها وهواجسه ، ليست تلك التي تشغل بالنا . إنما المسألة هي ، في مدى تأثير الصراع الدائر هناك على علاقات العرب بالعرب ، وعلى علاقاتهم بالعالم . لقد أشرنا سابقاً ، الى أن التدخل السوفياتي في افغانستان ، ادى الى مزيد من التشرذم في الموقف العربي . ولا نرى أن هذه النتيجة كانت حتمية ، بل ان تحديد موقف عربي موحد ، يأخذ بعين الاعتبار ، معاً ، حق تقرير المصير لكل شعوب العالم وضرورات التعامل الايجابي مع الاتحاد السوفياتي ، كان ممكناً ولا يزال ممكناً حتى الساعة . فافغانستان كشفت الخلافات العربية واضافت عليها ولكنها لم تخلقها ، ولم تكن العامل الأول والأخير في تطورها .

بل إننا نذهب ابعد للقول ، ان الاتحاد السوفياتي هو ، في هذه المرحلة ، بحاجة ماسة الى تخفيف حدة معارضة العالم لتدخله في افغانستان حيث رأى نفسه ، للمرة الأولى على الارجح ، مضطراً لمواجهة الغرب والاكثرية الساحقة من دول العالم الثالث في الآن نفسه . وقد اهتزت صورته في الدول الحديثة النشوء ، كمدافع عن حق تقرير المصير وعن حركات التحرر . وهو بالتحديد ، بحاجة الى نوع من التفاوض حول افغانستان ، يؤدي الى ما قد تعتبره موسكو على الارجح نوعاً من التحييد الفعلي للعامل العربي في المعادلة الافغانية . وموسكو في هذا الصدد ، وعلى الرغم من حدة ردود الفعل العربية على التدخل ، ما زالت تفصل بين مجمل العرب ومصر (التي تقدم عوناً مادياً) وايران وباكستان (المحاذيتان لافغانستان) . إن كان الوضع كذلك ، وبالنظر الى التحديات الهائلة التي يواجهها العرب اليوم في تعاملهم مع الغرب (ومع الولايات المتحدة بالتحديد) ، لماذا لا نفكر بتفاوض يأخذ بعين الاعتبار مصالحنا من جهة وعزلة موسكو النسبية من جهة أخرى ؟ سيقول البعض أنها مقايضة . وقد يكون الأمر في بعض جوانبه كذلك . لكن اليست المقايضة بعضاً من الخبز اليومي في العلاقات الدولية ؟ □